السرقة عند الأطفال

بقلم السيدة زاهيه مرزوق

أثبتت التجارب العلمية أن السرقة ليست عادة وراثيـــة يتوارثها الأبناء عن الآباء ولكنها عادة يكتسبها الطفل من بيئته ومن الظروف التى تحيط به . والسرقة نقص خلق له قيمته وأهميته فى الحياة الاجتماعية ، فإذا اعتدى شخص على حقوق غيره عد مسئولا أمام المجتمع والقانون عن هذا التعدى وحوسب حسابا عسيرا عليه .

وقد شعر المجتمع من بدء نشأته بخطورة السرقة ونتائجها فسن القوانين لتأمين كل فرد على حقوقه وممتلكاته وأجمع المشرعون فى جميع العصور على ضرورة المعاقبة على السرقة وذهبت بعض الشرائع حتى الى قطع اليـد السارقة . والسارق يعيش مبغوضا من المجتمع منبوذا منه ولا مأوى له إلا السجون والاصلاحيات عساها تصلح من حاله أو تق الناس شر اعتدائه .

و بالرغم من اعترافنا بخطورة جرم السارق وجريمة السرقة فإنا لا نزال نرى الآباء والأمهات وقد أهملوا منع كثير من المقدمات التى تتدرج بالطفل إلى تثبيت هذه العادة الدنيئة فى نفسه فالطفل الذى لم يعود التفرقة بين ممتلكاته الشخصية وممتلكات الآخرين فى المنزل لا يمكن أن ننتظر منه التفرقة بين ما له وما لغيره خارج الدائرة المنزلية. والطفل الذى يسمح له باستعمال ملابس أخيه أو لعب أخته أو ممتلكات أبيه أو أدوات أمه لا بد أن يختلط عليه أمره ولا يعرف واجبه فى المحافظة على حقوق غيره خصـوصا وأن غريزة الامتلاك تبلغ عنده أشدها فى هذه المرحلة الأولى من مراحل نموه . والطفل إذا ترك لنفسه فإنه يريد أن يستولى على كل شىء و يستأثر به دون غيره فإذا لم نبدأ معه مبكرا فى إفهامه ما له وما عليه تمادى فى إشباع هذه الغريزة إلى الحد الذى يعده المجتمع سرقة .

ولا يمكن أن ننتظر من الطفل تقدير الظروف وفهم الأسباب التى من أجلها حرم عليه امتلاك بعض الأشياء وإنمـا يكفيه أن يفهم أنه ليس من حقه امتلاك أشياء لا تخصه وإذا خالف ذلك فانا نظهر عدم ارتياحنا لأعماله وعدم رضانا عنه و إذا عاد للمخالفة فانا نظهر غضبنا واستعدادنا لمعاقبته بأى وسيلة تؤثر فيه وتترك ذكرى عميقة فى نفسه . وتشجيع الطفل أو التساهل معه ولو فى أتفه الأمور ربمـا يكون السبب الأول فى تركيز عادة السرقة

فى نفســه . أعرف شابا فى الأرياف درج على السرقة وأصبح من كبار اللصوص بسبب تهاون أمه فى " بيضة " أحضرها لها لأول مرة من عشة الجيران ففرحت بها وأظهرت اغتباطها " لشطارة " ابنها فشجعه ذلك على الاستزادة من جب الأشياء لها من أى طريق وكان ذلك الأساس الأول لجعله من أخطر اللصوص . فاذا حضر لك طفلك بشىء من الطريق فلا تفرحى بل اسأل ودقق من أين أتى به فاذا قال لك وجدته ملق على الأرض تأكدى أولا أنه صادق فى ذلك ثم أظهرى تأثرك للشخص الذى فقده وقولى لطفلك ماذا يكون حالك لو فقدت شيئا عزيزا عليك ألا تحزن ؟ وكم يكون فرحك لو رد إليك؟ هيا يابنى ابحث جيدا عمن فقد ذلك الشىء ورده إليه وبذلك تكون قد أديت الأمانة وصنت حقوق غيرك كما تحب أن يصون الغير حقك .

وأول خطوة يجب ان نخطوها نحن الآباء والأمهات فى سبيل منع هذه العادة هى احترام حقوق الطفل فى ممتلكاته الخاصة من ملابس ولعب وأدوات وغيرها من الأشياء التى ربما اعتبرناها نحن الكبار ضئيلة القيمة بينما هى فى نظره فوق كل قيمة . وليس معنى ذلك عدم تشجيعه على إشراك أقرانه وزائريه الصغار معه فى اللعب بما يمتلك من ألعاب ولكن يجب أن يكون شاعرا دائما بملكيته لها وحرية التصرف فيها فلا نقدم على إعطاء شىء منها لأحد إلا إذا سمحت نفسه بذلك . أما إذا أرغمناه على شىء لا يريده فان ذلك يضعف من قيمة الملكية ويقلل من احترامه لحقوق غيره ما دام الغير يتعدى على ما يسميه حقوقه .

ومن الخطأ أن يتغاضى الوالدان عن حوادث السرقة البسيطة زعما منهما أنها حوادث عادية فعلى أساس هذه الأشياء التافهة يبنى الطفل صروح هذه العادة البغيضة : فعليك أن تحاذرى من التساهل مع طفلك إذا أخذ الحلوى بدون إذنك أو التقط ما يا ليشترى به خلسة ما حرم عليه أو حتى إذا أخذ من ورائك رغيفا ليعطيه لسائل .

فالطفل الذى يأخذ اليوم منك سوف يأخذ غدا من غيرك . والطفل الذى يستبيح منزله اليوم سوف يستبيح غدا منزل الجيران أو دكان البدال والطفل الذى تمتد يده إلى خزانة منزله لايجد غضاضة فى مدها خارج المنزل . ومن الخطأ كذلك أن نضع فى طريق الطفل مغريات لايقوى أمامها على التفكير فى ضبط نفسه وخصوصا إذا كان محروما من هذه الأشياء فالأم التى تحرم اللعب على طفلها ثم تضع أمامه الكور الملونة والأم التى تمنع طفلها من أكل الحلوى ثم تضع أمامه صندوق الحلوى مفتوحا يسيل له لعاب الكبار قبل الصغار والأم التى تحرم طفلها من شراء الأشياء ثم تضع أمامه النقود فى كل مكان ، هذه الأم لايمكن أن تنتظر من طفلها أن يكون قديسا يقاوم الإغراء بالفضيلة ويقنع من لذة الحياة بالزهد فيها والبعد عن بريقها الذى يخطف الأنظار .

وكثيرا ما يكون حبنا لطفلنا ورغبتنا فى الدفاع عنه سببا مباشرا أو غير مباشر فى تماديه فى السرقة والتوغل فيها ، فعند ما نصطدم بخبر سرقته تأخذنا عزة النفس وسرعان ما نأخذ وظيفة الدفاع عنه بحق و بغير حق ونقف صفا واحدا وننقلب من الدفاع عن المشتكى منه إلى الهجوم على الشاكى ونهال عليه توبيخا وتجريحا حتى يرتد عن اتهام طفلنا و إلحاق العار بنا ، وأحيانا يكون النضال بين الأم والوالد ، فالوالد إذا نما إليه خبر من هذا القبيل يأبى ذلك على طفله ويريد اتخاذ طريقة فى عقابه فتبرى له الأم وتدافع عنه قبل بحثها وتحقيقها أو حتى بعد علمها بخطئه لحبها الأعمى له وشفقتها الكاذبة عليه وجهلها بمصلحته كل هذه عوامل تقف فى سبيل تربية الطفل ورده إلى صوابه .

ومن الآباء من يتعدى حد الاعتدال فى تقدير ما يأتى طفله من مخالفات فتراه دهشا غاضبا متألما متأثرا لدرجة تفقده توازنه فيجعل من الحادث حكاية لا تنتهى ومن ذكراه شبحا يكرهه على ترديده أمام الجميع فتصبح الحادثة مضغة فى الأفواه يسممها الطفل أيما يسير وتصبح عارا له فى كل مكان ويتمسك أطفال الشارع بروايتها فى كل فرصة ويتخذها رفاق المدرسة وسيلة لإغاظته ويلقبه الجميع "بالحرامى" ، ويتخذها الجميع سببا للتشكك فى كل أعماله والارتياب فى كل حركاته وسكناته والطفل فى وسط كل هذا لا يجد فرصة لإظهار استعداده للتكفير عن هذا الذنب الذى لا يغتفر والجرم الذى لا يعرف أحد لماذا ارتكب، فإذا طال به الحال وزادت الحملة عنفا وثقل عليه تحملها ربما أدت به إلى اليأس وخرجت به عن طريق الصواب ، وفى هذه الحالة نكون قد ألحقنا بالطفل ضررا بليغا بدلا من محاولة إصلاحه ، وتلافيا لذلك يجب أن يضع الوالد نفسه فى مركز المحقق المدقق الوازن للأمور بميزان العدل والإنصاف وعليه أن يجتهد فى فهم ما يدفع الطفل إلى ما يأتى من مخالفات ويعمل على إفهامه بالحسنى أوجه الضعف فى خلقه ومساعدته بكل الوسائل المجدية على تقويمها وانتهاز الفرص لإسداء النصح له كلما دعى الأمر إلى ذلك .

وربما استعمل الطفل السرقة لإرضاء شهواته ورغباته بالرغم من معرفته أنها محرمة عليه وأنها جنحة فى نظر القانون والمجتمع فهذه العقلية الصغيرة ربما اشتهت شيئا لم يكن فى طاقة والديه المالية الحصول عليه أو ربما كان مصروفه الخاص لا يتسع لكل ما يشتهى أو ربما كان متسرعا لا يمكنه الانتظار حتى يدخر ما يكفى لشرائه وفوق ذلك كله فانه لا يجد رادعا عن إرضاء هذه الشهوة المتأججة فى نفسه فيضطر لسرقة ما يريد وربما يساعده الحظ فلا يكشف أمره فى هذه المرة ولا فى التى تليها وهكذا يسير خطوة خطوة إلى تثبيت دعائم السرقة فى نفسه ويتعود الاستهتار بحقوق غيره .

وقد تكون السرقة وسيلة من الوسائل التى يستعملها الأطفال لاشباع عاطفة أو وسيلة للوصول إلى شىء مرغوب فيه وليس حبا فى الشىء المسروق أو رغبة فى الاستيلاء عليه . ففى

حالة الطفلة "ف" نجد أن السرقة لم تكن إلا وسيلة لإشباع ميلها الى الانتقام من الأطفال الذين يسخرون منها و يعمنون فى إغاظتها ولقد كانت هذه الطفلة ضعيفة البنية متوسطة الذكاء عادية الخلقة وكانت تسرق الأشياء من أدراج بعض تلاميذ فصلها واستمرت على هذه الحالة شهرين وكانت لاتعترف أبدا بأنها هى المذنبة ولما جىء بها إلى العيادة السيكولوجية أنكرت فى أول الأمر أنها السارقة ولكن بعد حوار بسيط قالت بتأثر : مفيش حد بيحبنى ولا أعرفش السبب البنات بيغيظونى و يعيبوا على . أنا بسرق من دول بس علشان أغيظهم . وكانت الطريقة التى عبرت بها عن شعورها فى الانتقام غريبة فى حد ذاتها إذ أنها لم تستعمل الأشياء المسروقة بالمرة بل كانت إما أن ترميها أو تخفيها فى مكان لايصل إليه أحد. ومن الغريب أن هذه الطفلة كانت على علم تام بالنتيجة التى يصل إليها السارق وكان ذلك يدفعها إلى الحذر الشديد خشية أن يكشف أمرها ولكن حب الانتقام لنفسها دفعها إلى السرقة وحب الأخذ بالثأر كان هدفها الوحيد .

ولقد كان العلاج بسيطا فى حالة هذه الفتاة فعمدنا إلى إصلاح جسمها ومظهرها بالتغذية الصالحة و بالاعتناء بملابسها وهندامها حتى لايعيرها الأطفال بشكلها ونقلناها إلى مدرسة أخرى بين أقران لا يعرفون ماضيها . وبقليل من المساعدة فى أعمالها المدرسية رجعت الى حياة عادية سعيدة ملآى بالسلام والطمأنينة ، وربما كانت الغيرة دافعا غير مباشر للسرقة و ربما تمر بدون ملاحظة الوالدين وذلك كما حصل فى حالة الطفلة "و" كانت تسرق كل ما تصل إليه يدها من غرف المدرسة أو أدراج الأطفال أو منازلهم حين زيارتهم ، وقد لوحظ عند البحث أن الأشياء المسروقة لم تتعد ممتلكات الأطفال انفسهم وأن الطفلة لم تكن تحاول قط الانتفاع بهذه الأشياء بل كانت تلجأ دائما الى اتلافها أولا بأول وقد اتضح من هذه الحالة أن الفتاة كانت محرومة مما يتمتع به رفاقها الأطفال من اللعب والملابس الجديدة وأن الغيرة دفعتها إلى سرقة الأشياء واتلافها حتى لايتمتع بها غيرها على مرأى منها .

وقد يقع الطفل فى عادة السرقة لمصادفة أو أثناء لعبه مع الجماعة وهنا يكون الشىء المسروق لا قيمة له ولكن لذة الشعور بالفوز على الجماعة الأخرى كانت عظيمة. رأيت بعض الأطفال يلعبون " عسكر وحرمية " فكان فريق منهم يسرق شيئا ويخفيه فى أماكن مختلفة ويمثل الفريق الآخر دور الشرطة فى البحث عن اللصوص فكان أفراد الفريق الأول يتفننون فى طرق السرقة وابتكار الأساليب فى اخفاء المسروقات بدافع حب الفوز على الفريق الآخر فوقفت برهة وتأملت فى نفسى كم من هؤلاء الأولاد ستتأصل فيهم عادة السرقة نتيجة لهذه اللعبة وهلا يمكن توجيه نشاطهم إلى طريق آخر ينفعهم و يزيد من صحتهم وثقافتهم؟ حقيقة إن حياتنا الاجتماعية فى حاجة ماسة إلى أندية للأطفال وملاعب يباشرها خبيرون قادرون على توجيههم وجهة صحية خلقية نافعة .

وربما لجأ الطفل للسرقة لا لشيء يعود عليه بل يعود على غيره كما حصل فى حالة الطفل " ش " الذى بلغ من العمر ثمان سنوات فكان يسرق من المنزل نقودا لشراء حلوى يوزعها كلها على أولاد فصله ، فما الدافع له على ذلك يا ترى ؟ بعد بحث بسيط اتضح أن أخاه الأكبر منه قليلا أنشط منه فى الحياة الاجتماعية محبوب من الجميع ، ولديه أصدقاء كثيرون وهو لا يفتأ يفاخره بهذه الميزة و يعيب عليه قلة أصدقائه و يتخذ ذلك طريقا لإغاظته فبحث الولد عن طريقة يكثر بها عدد أصدقائه فلم يهده تفكيره إلا لطريقة الرشوة فلجأ إليها كى يكسب أكبر عدد من الأصدقاء والمريدين حتى يقف فخورا أمام أخيه الأكبر بما نال من نجاح فى جذب القلوب إليه . ولكن ما السبيل إلى إرضاء هذا الجيش من الأصدقاء والمصروف البسيط لم يتسع لكل هذا التبذير ؟ والجواب طبعا واضح لا يحتاج إلى تفكير !!

وربما يلجأ الطفل الى السرقة للمحافظة على مكانته وكرامته بين أقرانه : أعرف طفلا بلغ من العمر تسع سنوات وكان مثالا للأدب والأخلاق وكان أبوه على قسط كبير من العلم ولكنه كان لا يعتقد فى ضياع وقت الأولاد فى الرحلات المدرسية فكان يحرم ولده منها . ولقد قام فصل " على " بعدة رحلات ولكنه لم يذهب معهم لأن والده امتنع عن دفع الاشتراك وأخذ الأطفال يتساءلون عن سبب عدم ذهاب " على " معهم وأصبح الطفل فى مركز حرج حتى أنه اضطر الى سرقة قيمة الاشتراك من والدته ودفعه حتى لا يقول الأولاد إنه عاجز عن دفع الاشتراك ، وبالرغم من دفع الاشتراك فانه لم يذهب فى الرحلة لأنه كان يعرف تماما أنه لا يمكنه الذهاب بدون علم والده وأن والده لا يمكن أن يأذن له ..

زاهية مرزوق

من كلام الإمام على

أزرى بنفسه من استشعر الطمع ، ورضى بالذل من كشف عن ضره ، وهانت عليه نفسه من أمّر عليها لسانه .